٢ ـ قيس ولبـــنى

المشاعر المجدد الاستاذ عزيز أباظة بك

للأســـتاذ دريني خشبة

وضعنا بين أيدى القراء ـ وذلك فى العدد السابق من الرسالة ـ خلاصة مضغوطة لقصة هـذا الهوى اللافح ، والحب المرمض المبض ، الذى ملأ حياتي قيس ولبنى بمأساة من أروع مآسى الأدب العربى القديم ، أو الأدب العربى فى صدر الإسلام ، وذلك وَفْقَ ما أثبت القصةَ أبو الفرج فى أغانيه ، ثم أردفنا الخلاصة بموجز جاف لمسرحية الشاعر المجدد عزيز أباظة بك ، رجاء أن نشرك معنا القراء فى استعراض القصتين ، والموازنة بينهما ، وإدراك ذلك الجهد الشاق الموفق الذى بذله الشاعر المصرى البارع في استغلال قصة الأغانى والتصرف فيها ، دون تقيد برواية ، ودون تقديس لتاريخ ، فالأغراض الأدبية ، ولا سيما إن كان المسرح هو طريق إبرازها ، لا يلزم أن تتقيد بما ورد فى سجلات الماضى ، حتى وإن كان ما ورد فى تلك السجلات هو الحق الذى لا يأتيه الباطل من أى نواحيه . . . ولا داعى لأن نضرب مثلاً بالطريقة التى تفوولت بها مأساة مثل مأساة كليوبطرة على أيدى شيكسبير وشوقى مثلا . . . وقد كان شيكسبير نفسه لا يحفل كثيراً بدقائق التاريخ وحقائقه ، بل كان يضحى كل شىء فى سبيل الهدف الذى كان يضع من أجله دراماته ، مع أنه كان يغترف الحوار أحياناً من سجلات هذا التاريخ

١ — فلقد استغنى الأستاذ عن شخصيتى الحسن والحسين ، واكتفى بأن يكون ابن أبى عتيق رسول الحسين إلى الحباب أبى لبنى ، وللشاعر رأيه فى هذا الاستغناء . . . والكلام عن ذلك لا بد أن يكون كلاماً شائكا ، لأنه يتناول مسئلة إبراز الأشخاص الذين نحيطهم بهالات مقدسة على المسرح . . . وقد كان الشاعر لبقاً فى وسيلة هـذا الاستغناء ، إذ جعل سببه اشتغال الحسين بموضوع تلك البيعة التى فرضها معاوية على المسلمين لابنه يزيد ، ولم يجعل سببها إكبار الحسن أو الحسين عن المشاركة فى هـذه القضية الغرامية . . . التى كانا فيها رسولى رحمة وحنان وعطف بين قلبين ، وبين أسرتين كريمتين من أسر المدينة والبطون القريبة منها فى سَرَف

٢ — واستغنى الشاعر أيضاً عن قصة زوغ هـذا الحب بين قيس ولبنى ، كما استغنى عن مرات اللقاء المختلسة الأولى ، التى تذكى الحب عادة وتؤكده ، والتى تصور ما كان يتجشمه المحبون فى سبيل هـذا اللقاء فى البيئة العربية القديمة من أخطار وما كانوا يستهدفون له من هول وروع

٣ — واستغنى كذلك عن هذا المشهد المؤثر الذى توسل به ذريح للتأثير على قلب قيس الغَـض كى يطلق لبنى . . . مشهد قيامه فى الظهيرة عارى الرأس والشمس تصب لهبها على يافوخه ، ومجىء قيس ليظلل أباه حتى يفىء الفىء . . .

٤ — ومنظر وداع لبنى فى قصة أبى الفرج ! هـذا المنظر الذى لا يكاد أن يضارعه مثيل فى أدب أمة من الأمم ! اسمع إلى الأصفهانى حيث يقول : « فوقف ينظر إليها ويبكى حتى غابوا . فكر راجعاً ونظر إلى خف بعيرها ، فأكب عليه يقبله . ورجع يقبل موضع مجلسها وأثر قدمها ! فلما جن الليل ، وانفرد ، وأوى إلى مضجعه لم يأخذه القرار ، وجعل يتململ فيه تململ السليم ، ثم وثب حتى أتى موضع خبائها ، فجعل يتمرغ فيه ويبكى ... !! »

ولست أدرى لماذا لم يسجل شاعرنا الكبير هذا المشهد الرائع فى نهاية الفصل الثالث ؟ لعلنا نوفق إلى كشف السر فى المقال الباكى الذى سوف يتلو هذا الفصل

٥ — ولم يشأ الشاعر لمسرحيته أن تنتهى إلى مأساة ، ولذلك لم يأخذ فى ختامها بأقوال الجمهرة من الرواة الذين قرروا أن قيساً ولبنى لم يجتمعا بعد الطلاق ، وأنهما ماتا على هذا الفراق المر . والبعد الوبيل ، وأخذ بأقوال القلة التى لا يؤبه لها من الرواة الذين زعموا سعي ابن أبى عتيق والحسن والحسين ، أو ابن أبى عتيق وجاه الحسن والحسين لتطليق لبنى من كثير ، وردها على قيس . وهكذا آثر النهاية السعيدة التى تجبر ما انشعب من تلك القلوب الكسيرة وترد الأمنة إلى عيون المؤرقين ، على النهاية الباكية القاسية التى تفرق بينهم أبد الدهر . وللشاعر مطلق الحق فى أن يتصرف هـذا التصرف ، وسنترك تعليل اختياره هذا إلى الفصل الباكى الذى سوف يتلو هذا

الفصل كما ذكرنا من قبل ، والذى سوف نطالع فيه القراء على الأهوال النفسية التى يضطرب بها فؤاد شاعرنا العزيز فتؤزّه أزّا ... هذا الفؤاد الذى أصبح فى ذاته ملحمة حزينة آسية ، مشرقة بالدمع ، من أروع ملاحم شعرنا الحديث ... ملحمة تحترب فيها الذكريات وتتضرم بالآلام والأوجاع

ولو قد أراد الشاعر أن تكون مسرحيته مأساة ، لأحببنا له أن يخلق من ضعف القصة الأصبهانية قوة ، وأن يثور فيها على التاريخ وعلى الرواة ثورة كاملة شاملة ... فقد أحب قيس لبنى ، وبادلته لبنى هـذا الحب الجارف الذى خالط قلبيهما وامتزج بدمائهما ، وربط بينهما الرباط المقدس الذى لا يعقل أن ينفصم على هذا النحو الزرى المضحك ، لأن ذريحا أراد له أن ينفصم ، ولأن ذريحا وزوجه أصرا على أن ينفصم ، بحجة أن قيساً قد آثر عليهما زوجه أولاً ، ولأن لبنى أنثى عقيم ثانياً ... فيظل قيس يخالف من أمرها عاماً بأكمله ، إبقاء على زوجه التى لا يد لها فى هذا العقم ، ثم ينهزم هذا النبل كله فجأة ، وينهزم هذا الحب العارم الصارم كله فجأة ، وتنحل الأواصر المقدسة فجأة ، فيرسل قيس زوجه وحبيبة قلبه ومنية نفسه إرسالاً سهلاً هيناً ليناً ، لأنه لم يعد يحتمل أن يعذب أبوه المأفون نفسه ، ولم يعد يحتمل أن يرى تلك النار المشبوبة فى دار المجانين الذين يظلون عاماً طويلاً وأكثر من عام طويل يشاكسون زوجين سعيدين حبيبين ، وينغصون عليهما صفو الحياة ... لوددنا إذن لو أن شاعرنا قد ثار على التـــاريخ وعلى الرواة وعلى أبى الفرج ثورة كاملة شاملة ، فرفض قصة هذا الفراق وذاك الطلاق الذى أضحك الدنيا بأسرها على سذاجة قيس لبنى ، وأشجت به قيس ليلى ، وعرضه لزراية المحبين وازدرائهم فى عالم الإخلاص والوفاء

٦ — ولـكن ماذا عسى أن تكون ماجريات الحوادث لو ثار الشاعر هذه الثورة ؟ هنا يترك الأمر كله للعبقرية التى يرهن الشاعر الـكبير على أنه يدخر منها الشىء الـكثير

٧ — ثم طلاق كثير لبنى ... هذا الطلاق الذى تم فى جلسة واحدة ما عطبه ؟ أبهذه السهولة يتم الطلاق فى البيئة العربية المحافظة الصارمة ؟ ومتى طُلب إلى عربى ، بَلْه المسلم ، أن يُعطى حرية التصرف فى أحد من أهله ... ولا سيما إن كانت الزوجة هى الغرض من إعطاء تلك الحرية ؟ ثم كيف تم تلك الخدعة التى لا يجيزها عرف ولا دين فى حضرة الحسن والحسين ، سِبْطىْ رسول الله ، وسيدىْ شباب أهل الجنة ؟ وإن فوجئا بها مفاجأة ؟ !

ولـكن هذه هى الرواية التى أثبتها أبو الفرج ، وأبو الفرج راوية ماهر يستعين على أذهاننا بإثارة مشاعرنا ، فلا يدعنا مستطيعين أن نسأل ما خطب كذا وما خطب كذا ... ولـكنه يتركنا نتألم فى غير استنكار لهذه القلوب الرطبة التى أنهكها الحب ، وأنهكتها الرحمة للمحبين ... الرحمة التى لا تدع لسائل أن يسأل ، ولا لمستدرك أن يستدرك

* * *

وبعد ، فقد كانت قيس ولبنى نجاحاً كاملاً على مسرح الفرقة المصرية ، وقد تلفّت الشعب فجأة فوجد آذانه تتلقّى ببيان عربى فصيح ، وشعر بدوى فيه جزالة وفيه فخامة وروعة ، وفيه موسيقا تُلين عاصيه ، وتتدفق به فى القلوب مُيَسَّراً مفهوماً ... بل محفوظاً فى كثير من رقائقه ، مُحَبَّباً فى كثير من قوافيه ، مدهشاً فى كثير من كلماته التى تخيّرها ذَوْق دقيق كأنه ذوق لآل ، أُغرم بالعربية الفصحى فوهبه الله سرها ، يجلو من غُرَرِها ودُرَرِها ما يشاء ...

لقد كانت قيس ولبنى ، برغم ما حاك فى القلب من قصة أبى الفرج ، قطعة من الحياة يختلط فيها جد الواقع بروعة الشعر ، وتدفق الحوار بهدوء النجوى ، وحرارة الحب بصلابة الواجب !

لقد كان فرحنا بها لا يعد له فرحنا بأية طرفة أدبية صدرت عن المطبعة المصرية هذا العام ... وكيف لا نفرح بها وقد صدرت بعد الدعوة الطويلة التي دعت إليها الرسالة ، من وجوب عناية الشعراء بالدرامة المنظومة التى آن الأوان لـكي تسد فراغاً مخيفاً فى الأدب العربى ... وليس معنى هذا ، قبل أن يعقب علينا معقب ، أو أن يسىء تأويل كلا منا مسىء ... أن قيساً ولبنى كانت ثمرة لهذه الدعوة ، ولـكنها كانت آية من آياتها ...

لقد سألت ناظمها الشاعر الجليل : ماذا أوحى إليك بنظم مسرحيتك ؟ فأجاب حفظه الله : لقد اقترحتها علىّ زوجتى ... ظللها الله برحمته ورضاه !

ولهذا حديث غير هذا الحديث ، ومقام غير ذاك المقام . وسوف أتحلل مما وعدت الأستاذ به من عدم التحدث عن هذه الأشياء ، لأنها من حق التاريخ والأدب لا من حقه .

دريني خشبة